الأحاديث المتعلقة بدعاء الكرب والشدائد وأثرها في بناء الصبر واليقين
- نماذج تطبيقية حديثية -

Al - Hadiths that related to supplication of distress and hardship and their effect on building patience and certainty: practical hadith models

م.د. زياد خلف حسين

الجامعة العراقية - كلية العلوم الإسلامية

Assist.Instr. Ziad khalaf Hussien

zeyad.k.alali@aliraqia.edu.iq

Iraqi University – College of Islamic Sciences

Abstract:

This study examines six Prophetic hadiths concerning supplications for distress and hardship, highlighting their impact on strengthening patience and deepening certitude in God during times of affliction. These hadiths were selected from Sahih al - Bukhari, Sahih Muslim, and other authoritative collections of Sunnah, reflecting a rich variety of theological and educational indications that guide the heart in moments of turmoil.

The research demonstrates that Prophetic supplication is a comprehensive faith - based method that begins with affirming divine oneness, magnifying the attributes of God, and invoking His absolute power to remove harm. This reshapes disturbed emotions, transforming fear into tranquility and brokenness into certitude. The study also focuses on the practical analysis of the hadith texts, extracting their applied meanings in refining monotheism, cultivating patience, and strengthening certitude.

It concludes that supplication in times of hardship constitutes a profound educational framework that grants the believer spiritual balance and restores clarity in understanding Gods wisdom, enabling him to emerge from trials with greater steadfastness and stronger faith.

Journal of Islamic Sciences
Vol.2 | Issue 43
ISSN: 2225-9732
August 2026
مجلة العلوم الإسلامية
المجلد 2 | العدد 43
www.isscj.edu.iq

ملخص البحث

يتناول هذا البحث دراسة استقرائية تحليلية لمجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة المتعلقة بدعاء الكرب والشدائد، مبيناً أثرها المنهجي في ترسيخ الصبر وتعميق اليقين بالله تبارك وتعالى عند نزول البلاء.

وقد جرى اختيار هذه الأحاديث من الصحيحين ومن أمهات كتب السُّنة المعتمدة بما يعكس تنوع الدلالات العقدية والنفسية والتربوية التي توجّه القلب في لحظة الاضطراب. وتتحدد مشكلة البحث في بيان كيفية صياغة الدعاء النبوي لمنهج إيماني متكامل، يبتدئ بتثبيت التوحيد وتعظيم صفات الخالق سبحانه، ويستدعي قدرته المطلقة على كشف الضر، مما يسهم في إعادة تشكيل المشاعر المضطربة، ويحيل الخوف إلى سكينة، والانكسار إلى يقين راسخ.

واعتمدت الدراسة على المنهج التحليلي التطبيقي لألفاظ الأحاديث النبوية، واستنباط دلالاتها العملية في تهذيب التوحيد، وصناعة الصبر، وتثبيت اليقين، مع تدعيم الأبعاد الشرحية بنصوص الأئمة الأعلام من شُرّاح دواوين السُّنة المشهورة.

وينتهي البحث إلى أن الدعاء عند الشدة يمثل مدرسة تربوية راسخة، تمنح المؤمن توازناً روحياً وسلوكياً، وتعيد إليه بصيرته في فهم حكمة الله تبارك وتعالى وتدبيره المحيط، ليخرج المرء من المحنة والنازلة أكثر ثباتاً وقوة في إيمانه ويقينه.

المقدمة

الحمدُ لله الذي تهفو إليه القلوب في لحظات التقلّب، وتطمئن بذكره الأرواح عند اشتداد الخطوب، ونستعينه في الشدة والرخاء، ونستغفره مما أسرفنا من زلل وخطيئة، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً.

يمرّ الإنسان في حياته بمحطات يضيق فيها الأفق، وتتزاحم الهموم على قلبه، ويتقلب بين الخوف والرجاء. وفي مثل هذه اللحظات ينهض الدعاء بوظيفته الروحية الكبرى؛ ركيزةً تعيد ترتيب الداخل، وتربط المكلوم بربّه، وتمنحه قدرةً عالية على مواجهة ثقل اللحظة، وثباتاً يليق بمن يوقن أن الله قريبٌ منه، يسمع دعاءه، ويرى موضع ضعفه. وقد صوّر القرآن هذه الحقيقة تصويراً بالغاً في قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢].

ويؤكّد الوحي كذلك أهمية الصبر واليقين في مواجهة الشدائد، فيقول سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]. وبناءً على هذا السياق، جاء الجمع بين الصبر واليقين ليؤكد تكامل البناء النفسي والإيماني للمؤمن في زمن الشدة، مبيناً أن استقرار هذا البناء يتأسس عليهما مجتمعين تلازماً وترابطاً.

وقد اشتملت السنة النبوية على أدعية جامعة توجّه القلب في أوقات الكرب، وتعلّمه كيف يقف بين يدي الله بطمأنينة واعية، تنطلق من معرفةٍ بعظمة الله، واستحضارٍ لرحمته.

وتذكّر بقدرته في كشف الضرّ، وفي ذلك تأسيسٌ لقوة نفسية تُعين المؤمن على الثبات أمام الشدائد.

أولاً: مشكلة البحث

تتمثل مشكلة هذا البحث في اقتصار فئة من المسلمين على الحفظ اللفظي لأدعية الكرب، بمعزل عن استيعاب دلالاتها العميقة أو تمثّل آثارها التربوية البانية للصبر واليقين. كما يتجلى القصور في ندرة الدراسات العلمية التي تتناول هذه الأدعية تناولاً تكاملياً يجمع بين البعد العقدي المرسخ للتوحيد، والبعد النفسي المخفف لأثر الكرب، والبعد التربوي الباني للثبات والسكينة، والبعد الوجداني المستنهض للقلب في لحظات الضعف. ومع اتساع أزمات الإنسان

المعاصر وتزايد الضغوط النفسية والاجتماعية، برزت فجوة واضحة بين المعرفة اللفظية المجردة بهذه الأدعية، وبين حضور مضامينها الحقيقي في الواقع العملي والسلوكي.

ثانياً: أهمية البحث

تنبع أهمية هذا البحث من اعتبارات عدة، أبرزها:

· تعلّق الموضوع بأصل عظيم من أصول التعبد، وهو فقه الدعاء عند نزول الشدائد والخطوب.

· الحاجة العلمية الملحة إلى تقديم فهم حديثي وتربوي متكامل يجمع بين دراسة النص وتحليله، لاستخراج معاني الصبر واليقين المستكنة في الأحاديث الشريفة.

· متطلبات الواقع المعاصر؛ بالنظر إلى حاجة الأفراد والأسر الماسة إلى مقومات استعادة التوازن النفسي، وترسيخ قيمة اللجوء إلى الله تعالى إبان الأزمات.

اتجهت الجهود العلمية إلى تلمس ظاهرة الكرب في الهدي النبوي من زوايا متعددة؛ حيث تبرز في هذا الصدد دراسة (محمد سعدي العيسى) الموسومة ب»أحاديث تفريج الكربات في الكتب الستة: دراسة تحليلية»[1] إذ ركزت تلك الدراسة على جمع الأحاديث الواردة في تفريج الكربات من مصادرها الستة الأصول واستقصاء أبعادها التحليلية الحديثية. ويأتي هذا البحث الحالي مكملاً لتلك الجهود العلمية وامتداداً تطبيقياً لها؛ إذ يتجاوز حدود الجمع والاستقصاء التحليلي العام، ليتجه قصداً نحو صياغة قراءة تربوية ونفسية معمقة، ترتكز على استظهار آليات بناء قيمتي الصبر واليقين وتوظيفهما إجرائياً في الواقع المعيش من خلال ستة أحاديث مختارة بدقة وسياق موضوعي محدد.

ثالثاً: هدف البحث

يتوخى هذا البحث تحقيق الأهداف الأكاديمية والتربوية الآتية:

· تحليل ستة أحاديث نبوية مختارة في أدعية الكرب والشدائد تحليلاً موضوعياً وتطبيقياً كاشفاً.

· بيان الدلالات العقدية واللغوية والتربوية التي تحملها تلك الأحاديث الشريفة.

· كشف أبعاد الصلة الوثيقة والترابط المتين بين الدعاء ومقامي الصبر واليقين من خلال النصوص النبوية الشريفة.

(١) مجلة كلية الإمام الأعظم الجامعة، العدد (٢٥)، سنة النشر٢٠١٨م

· تقديم رؤية تطبيقية منهجية تسهم في تمكين المسلم من استثمار هذه الأدعية المباركة في ترقية مستويات الصبر، وتهذيب النفس، وتوطيد معاني اليقين بالله تعالى.

رابعاً: منهج البحث

يعتمد هذا البحث في معالجته للمادة العلمية على المنهج التحليلي الموضوعي، والذي يقوم على الخطوات الإجرائية والتنفيذية الآتية:

· اختيار النص الحديثي وتحديده بدقة بوصفه الخطوة الأساسية الأولى للبحث.

· إجراء القراءة التربوية المعمقة التي تُبرز أثر النص ومضامينه المباشرة في بناء قيم الصبر واليقين.

· إعمال التحليل النصي الدقيق والمستوعب للحديث الشريف من حيث استنطاق دلالات ألفاظه ومعانيه وسياقاته المأثورة.

· صياغة المقاربة التطبيقية التي تجسد جسراً معرفياً يربط بين دلالات النص الشرعي ومقتضيات الواقع الإنساني المعيش.

المبحث الأول: معالم الدعاء النبوي في مواجهة الكرب وبناء اليقين

يتناول هذا المبحث جملة من المعالم النبوية المستوحاة من الأدعية المأثورة عن النبي ﷺ في أوقات الشدائد والنوازل، حيث تكشف هذه الصيغ الدعائية عن منهج متكامل في تربية النفس البشرية، وترسيخ قيم العبودية، وبناء حصانة إيمانية تدفع القنوط وتجلب الطمأنينة. وتبرز هذه المعالم من خلال أبعاد تعبدية ومعرفية ترتبط بمظاهر التعظيم، والتفويض، والافتقار إلى الله تعالى، وهو ما سيتم تفصيله عبر المطالب الآتية.

المطلب الأول: دعاء التعظيم والتفويض وأثره في تثبيت القلب

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: «لا إِلَهَ إِلا اللهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لا إِلَهَ إِلا اللهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ، لا إِلَهَ إِلا اللهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ وَرَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ»[1].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ج ٨ ص ٧٥)، ومسلم في صحيحه (ج ٨ ص ٨٥)، كما روي الحديث من طرق أخرى موصولة عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم.

يأتي هذا الدعاء النبوي في سياق يتقلب فيه الإنسان بين مشاعر الخوف والرجاء، إذ يتطلب هذا التقلب النفسي وجود ركيزة إيمانية تعيد إلى القلب طمأنينته واستقراره. ويظهر للمتأمل في هذا اللفظ الكريم أنه يبتدئ بتقرير توحيد العبادة الخالص، ويمثل ملاذاً يقطع صلة القلب بكل ما سوى الله تعالى؛ إذ إن كلمة التوحيد هي الأصل الذي يُبنى عليه الصبر، والمرجع الذي تركن إليه كل روح تبحث عن السكينة والأمن عند نزول البلاء.

ويلاحظ في النص النبوي اقتران كلمة التوحيد بوصفين جليلين هما: (العظيم، الحليم)، فالتأكيد على صفة العظمة يُكسب المكروب يقيناً بأن فوق ألمه رباً لا تعجزه الملمات، وأن القوة المدبرة للأمر من فوق سبع سماوات هي القوة المطلقة التي يصغر أمامها كل كرب.

أما صفة الحلم، فتمثل باب الرجاء اللطيف الذي يفتح للعبد أبعاد السكينة؛ إذ يستشعر المؤمن من خلالها أن ربه سبحانه وتعالى لا يعاجل العاصي بالعقوبة، ولا يعجل على عباده في لحظات ضعفهم، بل يقبل انكسارهم ويرحم تضرعهم ولا يردهم خائبين. ويتضح هنا شاهد الرجاء في اقتران الحلم بالعظمة، حيث يتلمس المؤمن رعاية الله ولطفه، فالقوي العظيم رحيم بعباده حليم عليهم.

ومن ثم، ينتقل الدعاء بالعبد انتقالاً تدريجياً تقتضيه طبيعة الموقف؛ فيتحول من توحيد الألوهية إلى توحيد الربوبية المقترن بذكر العرش: (رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ)، والعرش هو أعظم مخلوقات الله تعالى، وفي هذا الاستدعاء اللفظي والذهني لعظمة المخلوق دلالة قطعية على عظمة الخالق سبحانه، مما يثبت في نفس الداعي سياق التعظيم المطلق والافتقار التام لله رب العالمين.

قال الحافظ ابن حجر: «فإن قيل: هذا ثناء وليس فيه دعاء؟ فجوابه: أن المكروب يستهل دعاءه بالثناء على الله بتوحيده وتعظيمه، فإنه أسرع للإجابة» (١)

وقال أيضاً نقلاً عن الإمام الطبري: «كان السلف يدعون بهذا الحديث ويسمونه دعاء الكرب»(٢)

والإضافة إليه تذكير للعبد بأن كل قوة في الكون خاضعة لأمره، وأن من ملك زمام العرش، قادر على كشف ما نزل بالقلب من كرب. ثم يتسع السياق ليشمل العالم العلوي والسفلي في قوله ﷺ: «رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ وَرَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ»، وهذا الاتساع في الخطاب ينقل

(١) فتح الباري: (ج ١١ ص ١٤٧).
(٢) المصدر نفسه ح

المكروب من ضيق اللحظة إلى سعة الكون، ومن هم التفاصيل الصغيرة إلى استحضار قدرة الله المطلقة، فيهدأ القلب، ويثبت، ويجد يقيناً لا يتزعزع.

وقد نص أهل العلم على أن وصف العرش ب (الكريم) هنا يراد به حسن البهجة وكرم المظهر، كما قال الخطابي في بيان معناه: «الكريم: الحسن البهي»[1] وتوثيق الألفاظ يقتضي الإشارة إلى أن اللفظ جاء مقيداً بالوصفين؛ فوُصف العرش في الموضع الأول ب (العظيم) لبيان الكبر والمساحة، ووُصف في الموضع الآخر ب (الكريم) لبيان الشرف والبهجة والمكانة.

أولاً: الدلالة العقدية في هذا الدعاء

التوحيد الخالص:

إن افتتاح الدعاء بكلمة الإخلاص «لا إله إلا الله» ترسيخ لأصل الأصول الذي يحفظ القلب عند البلاء، فمن ثبت توحيده، ثبت قلبه، ومن علم أن لا ملجأ إلا الله، عرف طريق النجاة، تعظيم صفات الله تعالى: إن ذكر الوصفين الجليلين «العظيم» و«الحليم» يجمع بين القوة المطلقة لله، ورحمته التي تشمل المبتلى، وفي هذا الجمع يتولد معنى اليقين الذي يسبق الفرج.

الربوبية العامة والخاصة:

يؤكد ذكر «رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَأَوْ لَأَرْضِ» أن تدبير الكون كله بيد الله، والذي يدبر السماوات والأرض، لن يعجز عن تدبير أمر عبد ضعيف في لحظة ضيق. وتنقسم الربوبية في الاصطلاح العقدي المقرّر عند أهل العلم إلى قسمين: ربوبية عامة تشمل تدبير شؤون المخلوقات كافة من الخلق والرزق والإحياء والإماتة، وربوبية خاصة تتضمن عناية الله بأوليائه المؤمنين بالتوفيق والتثبيت والنصرة وإجابة الدعاء عند الكرب، وهو المقصود المستنبط من سياق هذا الحديث الشريف حيث تظهر الآثار المباشرة للعناية الإلهية الخاصة بالعبد المكروب عند تضرعه بتوحيد ربه وتعظيمه.

ثانياً: الدلالة النفسية والتربوية

يعيد هذا الدعاء ترتيب مشاعر الإنسان في لحظة الكرب، فبدل ارتباك القلب، يفتح أمامه طريقاً واضحاً، يبدأ بالتوحيد ثم استحضار صفات الله ثم الانتقال إلى معنى الإحاطة والقدرة، وتناول هذا المضمون في سياق الدلالة التربوية يعزز الطمأنينة، ويدعم الأمن النفسي في مواجهة النوازل.

(١) المذكرات: (ج ١ ص ٦٣).

الشعور بالسكينة النازلة من اليقين بالله، ولذلك قرر التابعين أن الدعاء الصحيح يمثل منهجاً متكاملاً في التوجه الصادق إلى الخالق سبحانه، ويتجاوز مجرد سرد الألفاظ المحفوظة إلى استحضار حقائق التوحيد، كما أشار الحافظ ابن حجر في بيان هدي التابعين عند النوازل(١).

فالقلب الذي يلهج بذكر «العَظِيمُ الحَلِيمُ» يستحي أن يستسلم للجزع، والقلب الذي يستحضر ربوبية السموات والأرض في قوله ﷺ: «رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ» يوقن تماماً أن البلاء - مهما عظم وثقل - يظل صغيراً وخاضعاً لسلطان الله المطلق وقدرته النافذة.

ثالثاً: أثر الدعاء في بناء الصبر وتثبيت الفؤاد

إن الصبر المستمد من هذا الدعاء النبوي الشريف هو صبر مبني على معرفة الله تعالى، والاطمئنان الكامل إلى حكمته، والثقة التامة في عاقبة أمره، والسكينة إلى حسن تدبيره؛ فحين يوقن العبد بأن الله العظيم الحليم رب العرش والسماوات والأرض هو الذي يتولى أمره ويدبر شأنه، ينقلب صبره صبراً واعياً متماسكاً، ينبع من إدراك شعوري عميق، ويفارق حدود الاحتمال الاضطراري. وهذا الصبر اليقيني هو الثمرة الإيمانية التي تُنتج الثبات عند الهزات؛ فالشرط الأساس لولادة اليقين هو تلاقي المعرفة بالله مع التجربة الإيمانية الحية في لحظة الضيق، وهو ما يعضده ما رواه الإمام أحمد في مسنده من أثر الذكر في تفريج الكرب وتحقيق معية الصبر(٢)

رابعاً: ارتباط الدعاء ببناء اليقين

يتشكل اليقين في هذا الدعاء من مضامينه ومعانيه النفسية والعقدية نفسها؛ فمن عرف ربه بصفة العظمة، قلّت في عينه هيبة المصيبة وتهالكت أمامه وعورة الكرب، ومن عرف ربه بصفة الحلم، اطمأنت نفسه إلى واسع رحمته ولطفه بعباده عند نزول النوازل، ومن عرف ربه بربوبية السماوات والعرش، زال عنه شعور العزلة والاستيحاش في هذا الكون، وزادت ثقته بأن الأمر كله بيد الله وحده.

المطلب الثاني: دعاء الانكسار والتسليم وآثاره في جلاء الهم وثبات القلب

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ،

(١) فتح الباري: (ج ١١ ص ١٤٨).
(٢) مسند الإمام أحمد: (ج ٥ ص ٢٨).

سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي»[1]

أولاً: الدلالة العقدية في هذا الدعاء

تحقيق العبودية الخالصة: يبتدئ الدعاء بإقرار العبد بأصله الأول في قوله: «اللهم إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك»، وهو اعتراف بمقام العبودية والمملوكية لله تعالى، وإقرار بأن الإنسان يستمد وجوده وقوته ورزقه من ربه سبحانه[2]

التسليم المطلق للربوبية والقدر: يمثل قول الداعي: «ناصيتي بيدك» إثباتاً لحقيقة انقياد العبد الكامل لتدبير الله الخالق، وأن زمام أمره وحركته وسكونه وعطاءه وحرمانه خاضع لمشيئة الله النافذة، ويعزز هذا التسليم الطمأنينة النفسية لليقين بأن قضاء الله في العبد عدل، وحكمه ماض لا محالة، وما يواجهه من تقلبات، كلها تجري تحت سلطان الرب القادر اللطيف الخبير، فلا مجال للجزع حين يستقر في العلم أن أقرب الأمور إلى الإنسان خاضعةٌ لتقدير الله وتدبيره سبحانه.

ثم تتعمق الدلالة العقدية حين ينطق العبد بالعبارة التي هي من أعظم عبارات التسليم لله: «مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ»، وهي جملة تمثل ذروة اليقين؛ فالإيمان بنفوذ حكم الله يقطع التردد، والإيمان بعدله يسكن الاضطراب، فيجتمع في القلب علمٌ بأن كل ما يجري عليه بقدر، وأن هذا القدر يؤول إلى الحكمة والعدل والرحمة التي تليق بجلال الله تعالى، وتأتي بعد ذلك أوسع أبواب التوسل والمتمثلة في التوسل بأسماء الله كلها، ما عُلِمَ منها وما استأثر الله بعلمه، وفي هذا سياقٌ يفيض بالرجاء؛ لأن العبد يسأل ربه بعظمة أسمائه التي لا تُحدّ، فيفتح على قلبه أبواب الإجابة، ويستشعر أن لطف الله محيط بحاجته، وأن رحمته أوسع من ضيق صدره.

(١) الحديث صحيح؛ أخرجه الإمام أحمد في مسنده، مسند الإمام أحمد: (ج ٦ ص ٢٤٦)، وصححه الإمام ابن حبان، صحيح ابن حبان: (ج ٣ ص ٢٥٣)، والحاكم في المستدرك، المستدرك على الصحيحين: (ج ١ ص ٥٠٩)، وله طرق وشواهد عن جماعة من الصحابة منهم عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) الفوائد: (ج ١ ص ٢٤).

ثانياً: الدلالة النفسية والتربوية

إعادة الترتيب الداخلي: يبدأ الدعاء بالاعتراف بالعبودية، لأن النفس حين تستقر على هذا المعنى تُسلم قيادها للخالق، وتخف وطأة الكرب عليها، وتواجه الابتلاء مستندةً إلى ركن شديد.

قطع الأوهام النفسية: تتواصل المعالجة النفسية حين يعلن العبد أن ناصيته بيد الله، فهذا الإقرار كفيل بقطع سلسلة المخاوف التي تصنع الهم؛ إذ يوقن المؤمن أن مصيره معلق بربه وحده.

تأسيس الهدوء الداخلي: يأتي الإقرار بمضي حكم الله وعدل قضائه ليمهد للنفس أرضية من السكينة؛ إذ يشعر المكروب أن ما يجري عليه يخضع لنظام تقديري محكم يمضي بميزان الحكمة الإلهية، والعدل الرباني، وتدبيره لو اطلع العبد عليه لأدرك الحكمة اللطيفة فيه؛ ولذا نصّ التابعون رحمهم الله على أن هذا الدعاء يمثل أبلغ ما يتعوذ به المرء عند النوازل؛ كونه ينقل المكروب من ضيق التدبير البشري المحدود إلى سعة التسليم المطلق لله تعالى .

ويعزز هذا المفهوم العقدي في عدالة القضاء والرضا به ما أُثر عن مطرف بن عبد الله بن الشخير حيث قال: «لأن أُعافى فَأَشْكُرَ؛ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُبْتَلَى فَأَصْبِرَ»(١) وفي هذا الأثر بيانٌ لتقدير التابعين لمعنى اللطف الإلهي، حيث يستقر في يقين العبد أن قضاء الله سبحانه نافذ، وأن عدله محيط بالمرء في السراء والضراء، ويبلغ هذا البناء التربوي غايته حين يطلب العبد جعل القرآن ربيعاً لقلبه ونوراً لصدره وجلاءً لحزنه؛ فالقرآن الكريم هو الشفاء الناجع الذي يسكب الطمأنينة، والنور الذي يبدد مخاوف النفس.

ثالثاً: أثر الدعاء في بناء الصبر الثابت

إن الصبر الذي يورثه هذا الدعاء النبوي هو صبر واع ينهض على المعرفة التامة بالله وبصفاته، ويتجاوز حدود الانكسار الاضطراري أو الخنوع؛ فحين يعترف المؤمن بنفوذ الحكم الإلهي وعدالة القضاء، يستقر قلبه على احتمال المشاق بثبات، مستمداً القوة من مولاه سبحانه، وقد عزز أئمة أهل السنة هذا المعنى ببيان أثر عمارة القلوب بالقرآن والتسليم في تحقيق الصبر: «إذا غُذي القلب بالقرآن، وانقشعت عنه ظلمات الهموم والأحزان، استقام على طريق الصبر، وصار

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: (ج ٢ ص ٢٠٠).

البلاء في حقه منحة تثبّت أركان إيمانه»[1]

رابعاً: أثر الدعاء في بناء اليقين يُنشئ هذا الدعاء في الوجدان يقيناً متدرجاً، يبدأ من مقام الاعتراف العميق بالعبودية الحقة لله تعالى؛ فقول الداعي: «اللهم إني عبدك... ناصيتي بيدك» يضع النفس الإنسانية في موضعها الصحيح، ويذكرها بفقرها الذاتي وغنى بارئها سبحانه.

المطلب الثالث: دعاء الاستعانة والخضوع عند انسداد الحيلة وتكاثر الهموم

عن أبي بكرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»[2]

أولاً: الدلالة العقدية في هذا الدعاء اليقين بالرحمة الإلهية وسيلة للنجاة.

يبتدئ التوجيه النبوي في هذا الذكر بتعليق الرجاء بالرحمة الإلهية وحدها، مما يرسخ في وجدان العبد أن جلاء الكرب مرتبط بفضل الله تبارك وتعالى، وينعكس هذا اليقين على النفس بالسكينة والثبات عند مواجهة الشدائد والخطوب، ويكشف هذا الدعاء عن ملامح عميقة من علاقة العبد بربه؛ فهو يبدأ بنداء الاستعانة: «اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو»، وهو نداء يعبر عن إدراك المؤمن أن رحمات الله تبارك وتعالى هي الملجأ الأول والأساس الذي يقصده في أوقات الضعف، وأن فضل الله في الدنيا أوسع من رحمة الوالدة بولدها، ويستمد العبد من هذا النداء قوة اليقين بأن الله هو أرحم الراحمين، وأنه سبحانه لا يترك عبده في لحظات حاجته إذا أقبل عليه منيباً تائباً.

ثم تأتي الجملة التي تُعد من أعظم ما يورث توحيداً في القلب، حين يقول الداعي: «فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ»، فهذه العبارة ترسم أبلغ صور الافتقار والالتجاء إلى الله تعالى؛ إذ يعلم المؤمن أنه لو تُرِكَ إلى نفسه ولو لثانية واحدة لضاع، وأن النفس بطبيعتها البشرية لا تحمل لصاحبها إلا الضعف والعجز والزلل، أما التوفيق، والهداية، والسلامة من الفتن، فهي كلها بيد

(١) الفوائد: (ج ١ ص ٢٩).

(٢) الحديث ثابت وله طرق متعددة؛ فقد رواه أبو بكرة رضي الله عنه، ورُوي كذلك من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه في السنن الكبرى للنسائي، والمستدرك للحاكم، والأحاديث المختارة لضياء الدين المقدسي. وقد دار حكم الحديث عند النقاد حول الراوي جعفر بن ميمون؛ فوثقه الإمام أحمد، والنسائي وقال فيه: «ليس به بأس»، وحسّن الحافظ ابن حجر العسقلاني الحديث نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار: (ج ٢ ص ٣٤١). وصححه الشيخ ناصر في السلسلة الصحيحة: (ج ١ ص ٤٤٩)، وبذلك يثبت الحديث بمجموع طرقه وشواهده الموصولة.

الله وحده، ومنه وحده يُستمد الحفظ والسداد والقبول(١)

ويتبع ذلك سؤال جامع يشمل شؤون الحياة كلها في قوله ﷺ: «وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ»، وهو سؤال واسع يدخل فيه صلاح الدين والنفس والقلب والبيت والرزق والعلاقات والسر والعلانية؛ فهو طلب لإصلاح ظاهر العبد وباطنه، وحاله ومآله، وأول أمر يثمره هذا الإلحاح على الإصلاح هو اليقين بأن الله إذا تولى شأن عبده أصلحه بما لا يخطر له على بال.

ويُختتم الدعاء بكلمة التوحيد: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»، وهي خاتمة تثبت المعاني السابقة جميعاً؛ فالتوحيد هو الجذر الأساس الذي ينبت منه الرجاء، وتنبثق منه الاستعانة، ويتأسس عليه طلب الإصلاح، إذ يتلازم الرخاء والتوكل فلا يكون رجاءٌ ولا استعانة ولا تفويض إلا إذا أُسّس على هذا الأصل العظيم.

ثانياً: الدلالة النفسية والتربوية.

تُظهر ألفاظ هذا الدعاء معالم نفسية دقيقة تساعد المؤمن على التعامل مع الهموم حين تضيق عليه الحياة؛ فهو يبدأ بالالتجاء إلى الرحمة، لأن القلب إذا وُضِع في دائرة الرحمة أولاً خَفّ عنه ثقل الابتلاء، وتملكه الهدوء عند مواجهة المحنة ممتثلاً سياق الطمأنينة الإيمانية

يواجهه المؤمن عند نزول الابتلاء، حيث يتأكد أن ترك العبد لنفسه مظنة الضياع، وأن أعظم أسباب الثبات تتجلى في استعانة العبد بالله تعالى في حركته وسكونه، ويأتي طلب إصلاح الشأن كله ليذكر القلب بأن الاضطراب ينشأ من اختلال التوازن الداخلي وتشوش العلاقة مع الخالق سبحانه، ومع النفس، ومع المجتمع؛ ولذلك يظهر في هذا الدعاء منهج متكامل لإعادة ترتيب البناء الداخلي للإنسان، فهو يعالج الكيان البشري كله، ويعيد للروح توازنها الاستراتيجي المطلوب. وفي ختام الدعاء بقوله ﷺ: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» يستيقظ القلب على حقائق التوحيد والعبودية، فيستقر العلم في الفؤاد بأن المجريات كلها تقع تحت التدبير الإلهي الحكيم.

ثالثاً: أثر الدعاء في بناء الصبر

يؤسس هذا الدعاء النبوي في قلب المؤمن ركائز راسخة من الصبر الواعي؛ كونه يجمع بين أصل الافتقار إلى الله، والاستعانة به، وطلب إصلاح الشأن، وتعد هذه المعالم الثلاثة من أعمدة الصبر الحقيقي الثابت عند النوازل. فالصبر الذي يفتقر إلى الاستعانة بالله يؤول إلى

(١) انظر مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: (ج ١ ص ٤٢٥).

التلاشي والنفاد، والصبر الناشئ عن مجرد قوة الجلد المادية ينقلب إلى عجز داخلي، أما الصبر الإيماني المستند إلى الرحمة الإلهية فهو صبر يثمر السكينة في القلب، ويحمي المؤمن من القنوط والاضطراب تحت وطأة الهموم. ويزيد هذا الصبر ثباتاً أن سؤال العبد لربه في إصلاح شأنه كله ينشئ في نفسه يقيناً بأن الصبر يمثل امتحاناً وتطهيراً للعبد، وانتظاراً واعياً لفرج الله، وتطلعاً مستمراً إلى لطفه وتوفيقه، مع الإيمان بأن الابتلاء الإلهي يؤول إلى تهذيب النفس ورفع مكانتها الإيمانية.

رابعاً: أثر الدعاء في بناء اليقين

يتولد اليقين في هذا المنهج الدعائي من استشعار العبد لرحمة الله تعالى؛ فمتى لامس هذا المفهوم قلب المكروب، خفت وطأة الشدة وانفتح أمامه باب الرجاء.

المبحث الثاني: مركزية الدعاء النبوي في تحرير القلب من الخوف وترسيخ التوكل

يتناول هذا المبحث دراسة الأبعاد المنهجية والتربوية للأدعية النبوية المأثورة في حماية النفس البشرية من عوارض الخوف والقلق، وبيان أثر الاستعاذة الشرعية في تثبيت الفؤاد وترسيخ معاني التوكل والاعتماد على الله تعالى. وتبرز هذه المعالم الإيمانية من خلال تفكيك الدلالات العقدية والنفسية الكامنة في صيغ الاستعاذة من الهواجس الثقيلة والمثبطات السلوكية، وهو ما سيتم تفصيله عبر المطالب الآتية.

المطلب الأول: دعاء الاستعاذة من الهواجس الثقيلة وآثاره في بناء الثبات والطمأنينة

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ»(١)

أولاً: الدلالة العقدية في هذا الدعاء

يكشف هذا الدعاء النبوي الشريف عن منهج عميق في تربية القلب على حقائق التوحيد والاستعانة بالله عز وجل؛ إذ يبتدئ التوجيه النبوي بحصر التعلق بالله وحده في كل ما يعترض النفس من همٍّ، أو ضعف، أو خوف. ويقرر أهل العلم أن الهم والحزن يمثلان مدخلاً من مداخل

(١) (أخرجه البخاري في صحيحه: (ج ٤ ص ٢٣)، ومسلم في صحيحه: (ج ٤ ص ١١٤)).

الشيطان إلى النفس البشرية لبث القنوط والوساوس وإضعاف العزيمة الإيمانية.

ثانياً: الدلالة النفسية والتربوية في الدعاء

يُظهر هذا الدعاء منهجاً نفسياً دقيقاً يعالج بواعث الهم من جذورها الأساسية، كونه يحدد مصادر القلق الأربعة الكبرى في حياة الإنسان، وهي: (الهم والحزن)، و(ضعف القدرة وضبط الهمة)، و(ضعف الشجاعة)، و(الخوف من الفقر، والقهر الاجتماعي، والضغوط المالية)، وتمثل كل واحدة من هذه المشكلات منفذاً يتسلل منه الألم والضعف إلى القلب، ولذلك جمعها النبي ﷺ في دعاء واحد ليعلّم الأمة أن علاج هذه الأبواب يتحقق بربط القلب بالله تبارك وتعالى ربطاً صادقاً يتجاوز حدود التحليل الذهني المجرّد. وحين يتعوذ العبد من الهم والحزن، فإنه يقرّ بأن أصل الطمأنينة ينبع من داخل النفس والرضا بالقضاء ولا يرتبط بالظروف الخارجية العارضة، كما أن هذا الهدي النبوي يسهم في إعادة ترتيب البناء الداخلي؛ فالهم يضعف قدرة الإرادة على النظر للمستقبل، والحزن يستولي على الفؤاد فيحجبه عن العمل الصالح وبناء الأمل(١)

وتتضح شمولية هذه المعالجة في أن الدعاء يتجه مباشرة إلى جذور المشكلة؛ فيستعيذ المؤمن من العجز والكسل اللذين يفتحان باب الفشل العملي، ويستعيذ من الجبن والبخل اللذين يفتحان باب الانغلاق والخوف النفسي، لتنتهي المعالجة بالاستعاذة من الدين والقهر اللذين يسلبان الإنسان حريته واستقراره، وبهذا يتشكل في القلب وعي تربوي متكامل يحقق التوازن النفسي والصلابة الإيمانية في مواجهة النوازل(٢)

ثالثاً: أثر الدعاء في بناء الصبر

يضع هذا الدعاء أساساً راسخاً للصبر، لأنه يبدأ بإزالة أسباب الانهيار النفسي؛ فالإنسان لا يعجز عن الصبر إلا إذا اجتمعت عليه هذه الأمور: همٌّ يقطع قلبه، وضعفٌ يفتّ من قوته، وخوفٌ يقيد إرادته، وضغوطٌ تغلبه، وديونٌ أو مشكلات تكسره. فجاء هذا الدعاء بمنهج تربوي يقوم على سدّ هذه الأبواب قبل أن تتحول إلى بلاء، لأن الصبر حالة تُبنى من الداخل وتتأسس على الرضا، فالذي يتعوذ بالله من الهم والحزن يخفّ عنه ثقل الابتلاء، والذي يتعوذ من العجز والكسل يستعيد قدرته على العمل البنّاء، والذي يتعوذ من الجبن والبخل يسترد شجاعته النفسية، والذى يتعوذ من القهر يشعر أن الله هو وليه ونصيره.

(١) انظر مدارج السالكين: (ج ١ ص ٤٤٢).

(٢) بتصرف الفوائد: (ج ١ ص ٤٩).

رابعاً: أثر الدعاء في بناء اليقين

يكشف هذا الدعاء عن أثر بالغ في تقوية يقين المؤمن؛ فهو يعلّمه أن المخاوف التي تحيط به تفتقر إلى القوة الذاتية المستقلة، وأن الهم والحزن والعجز والضعف قوى تستسلم بإخضاعها للاستعاذة الشرعية، كفونها أموراً يجريها الله لحكمة، ويملك رفعها سبحانه وحده. فحين يتعوذ العبد منها، يشهد في قلبه سلطنة الله عليها، وأنها لا تتحرك إلا بإذنه، فيرتفع من داخله شعور السيطرة الخارجية التي تحاصره، وينمو في قلبه يقين بأن الله هو المصرّف وحده.

ويتأكد هذا اليقين حين يتكرر في ألفاظ الدعاء عبارة «أَعُوذُ بِكَ»، فالتكرار هنا يمثل تثبيتاً لمقام الالتجاء إلى الله تبارك وتعالى، ومع كل استعاذة ينغرس في القلب شعور بأن الملجأ حقاً هو الله، وأنه سبحانه الملا ذ الأوحد عند نزول الخطوب.

المطلب الثاني: دعاء الافتقار النبوي عند نزول الكرب وأثره في بناء الصبر واليقين

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ لفاطمة رضي الله عنها: «مَا يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكِ بِهِ، أَنْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْتِ وَإِذَا أَمْسَيْتِ: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ»(١).

أولاً: الدلالة العقدية في هذا الدعاء

يبدأ النبي ﷺ دعاءه بنداء يتضمن أعظم أسماء الله تبارك وتعالى وهما: (الحيّ، والقيّوم)، واللذان يمثلان أصل كل كمال؛ فالحياة الكاملة التي لا يلحقها موت ولا نقص تثبت لله عز وجل، والقيومية المطلقة تتضمن تدبير الخلق وإصلاح شؤونهم، وهذه البداية إعلان توحيد متين يُنشئ في قلب المكروب يقيناً بأن الله لا يغيب عنه، وأن تدبيره سبحانه لطف محيط لا يعجزه شيء، ثم ينتقل ﷺ إلى قوله: «بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ»، وفيها أرقّ معاني الافتقار؛ فالمؤمن لا يطلب النجاة بعمله، ولا يستند إلى قوته، وإنما يلتمس العون من رحمة الله الإلهية التي لا تبلغها جهات النفس وتجود بها الأسباب، فالاستغاثة هنا مقام عال من الإيمان، يعلن فيه العبد أنه عبد فقير، وأن الله هو الغني القادر، ويأتي قوله ﷺ: «أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ» ليجمع أمور الدنيا والآخرة في طلب واحد؛ فإصلاح الشأن يتعدى مجرد إزالة الكرب العارض إلى تحقيق الصلاح الشامل في

(١) أخرجه النسائي في الكبرى: (ج ٩ ص ٢١١)، والطبراني في الأوسط: (ج ٤ ص ٤٣)، والحاكم في المستدرك: (ج ١ ص ٥٤٥)، وحسّنه الحافظ ابن حجر في الفتوحات الربانية: (ج ٥ ص ٢١)).

الظاهر والباطن، وفي القرار والنية، وفي العمل والتوجه، وفي العلاقة مع الله ومع الناس.

ويؤكد الحافظ المناوي هذا المضمون الشامل لإصلاح الشأن في شرحه للحديث قائلاً: «قوله: (أصلح لي شأني كله) أي: تولّ أموري الدنيوية والأخروية بالتسديد واللطف، فإن العبد إذا وُكِلَ إلى تدبير نفسه طرفة عين هلك، وطلبُ صلاح الشأن كله تفويضٌ مطلق لجريان الأقدار على ما يحبه الله ويرضاه»(١)

ثانياً: الدلالة النفسية والتربوية في الدعاء

يجمع هذا الدعاء منهجاً ربانياً عملياً لإدارة الكرب من جذوره؛ ففي لحظة الشدة لا يحتاج العبد إلى كلمات طويلة، وإنما يفتقر إلى باب مفتوح إلى الله تعالى، وإلى جمل مركزة تعيد ترتيب البناء الداخلي للإنسان، وتأتي كلمة «يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ» لتولّد في النفس شعوراً بأن الحياة محكومة بنظام تقديري محكم، وأن الله القائم على خلقه لا يترك عبداً لجراحه وآلامه. وقول الداعي: «بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ» يربي العبد على أن الاستغاثة تمثل وعياً حقيقياً بأن القوة والقدرة من الله وحده، فتتفتح أمامه طاقات نفسية تغنيه عن الاعتماد الكلي على الأسباب المادية المجرّدة.

أما سؤال «أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ» فهو تربية على رؤية أوسع تتجاوز حدود اللحظة الضيقة؛ فالكرب عادة يقود الإنسان إلى التركيز على المشكلة وحدها، لكن النور النبوي يعلّم المؤمن أن ينظر إلى الصورة الكاملة، وأن يطلب إصلاح الشأن في عمومه، متجاوزاً المعالجة الجزئية للمشكلات، وتأتي جملة «وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرَفَةَ عَيْنٍ» لتعالج أكبر أمراض النفس المتمثلة في الاعتماد المطلق على الذات في مواضع الضعف؛ فالنفس عند الكرب تضعف وتضطرب وتخطئ، وقد تندفع نحو اليأس والقنوط، ولذلك كان هذا الدعاء حمايةً ربانية.

ثالثاً: أثر الدعاء في بناء الصبر

ينشأ الصبر الحقيقي في لحظات الكرب من رسوخ الثبات واليقين بالله، ويتأسس في هذا الدعاء على أربعة أركان متكاملة:

- استحضار العظمة الإلهية في قوله: (يا حي يا قيوم).
- الالتجاء إلى الرحمة في قوله: (برحمتك أستغيث).
- طلب تدبير الشؤون في قوله: (والمطالبة بإصلاح الشأن).

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير: (ج ٣ ص ٥٢٦).

· الإقرار بالضعف البشري في قوله: (والاعتراف بالعجز).

وتسهم هذه المعاني مجتمعة في بناء صبر ناضج يعصم المؤمن من الانهيار عند مواجهة المخاوف، ويجعل من الكرب فرصة لتقوية القلب وتقويم المسار.

رابعاً: أثر الدعاء في بناء اليقين

يمثل هذا الدعاء نوراً يورث اليقين في وجه العواصف من خلال مضامين ألفاظه؛ فنداء (يا حي يا قيوم) يستحضر كمال القيومية، والاستغاثة بالرحمة تفتح أبواب الرجاء، وطلب إصلاح الشأن يورث الاطمئنان لسلامة التدبير الإلهي، والتبرؤ من الاتكال على النفس يؤكد أن الله هو السند الحقيقي عند سقوط الأسباب المادية. ويتنامى هذا اليقين ليمنح النفس سكينة وثقة مطلقة برعاية الله تعالى في أشد الأوقات.

المطلب الثالث: فلسفة الصبر والشكر في قلب المؤمن عند نزول البلاء

عن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»(١).

أولاً: الدلالة العقدية في الحديث

يُرسي هذا الحديث قاعدة إيمانية رفيعة تُعرَف في كلام التابعين رحمهم الله باسم: (الرضا بتصرّف الله)، ويبيّن أن سر الطمأنينة في حياة المؤمن ينبع من معرفة الله تبارك وتعالى التي تُنضج النظر، وتقوّي القلب، وتجعله يقبل الأقدار بثقة العارف بحكمة خالقه سبحانه، وقوله ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ» يمثل تعجباً يقصد به الإشادة بقدرة الإيمان على تحويل مجاري القدر إلى أبواب خير، وتوجيه الأنظار نحو عظمة التدبير الإلهي للمؤمن، حتى ما يظهر في صورة البلاء يتحول في ميزان الإيمان إلى رفعة للصابر وثواب مضاعف له، وقوله ﷺ: «وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ» يثبت حقيقة عقدية مفادها: أن الخير المحض الذي لا يخالطه شرّ على الحقيقة لا يكون إلا لمن آمن بالله؛ لأن الإيمان يحوّل الابتلاء إلى تكفير، والضرَّ إلى أجر، والصبرَ إلى درجة رفيعة، كما يحول السراءَ إلى شكر يقوّي العبد ويزيده فضلاً، وهكذا يصبح الإيمان منهجاً يرى

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: (ج ٨ ص ١٢٥).

من خلاله العبد حكمة الله تبارك وتعالى في كل حال، ويشهد في كل تقلب من تقلبات الأيام مظهر عظمته ولطفه.

ثانياً: الدلالة النفسية والتربوية في الحديث

يضع هذا الحديث الإنسان أمام لوحة نفسية متوازنة، تعالج اضطراباته في لحظات السراء والضراء معاً؛ فالسراء كثيراً ما تُنسي العبد وتورثه الطغيان، والضراء كثيراً ما تُسقطه في قلق الجزع. فجاء هذا الهدي النبوي ليربي المؤمن على طريقة إيمانية مستقرة في استقبال أحواله:

· إن جاءته السراء، التزم الشكر والاعتراف بالفضل.

· وإن نزلت عليه الضراء، لزم الصبر والاحتساب.

وهذا هو التوازن الذي يفتقده كثير من الناس؛ فمن حُرِم الشكر عند النعمة ضلّ وغرق في الغرور، ومن حُرِم الصبر عند الشدة انكسر واستسلم للهم. والمؤمن - بنور هذا الحديث - يتعلم أن يتعامل مع واقع الحياة بتوازن راسخ، ويقود مشاعره بإيمانه وتصديقه بموعود الله تعالى وقد عزز الأئمة شُرّاح دواوين السُّنة هذا المعنى التربوي والنفسي؛ حيث قال الإمام النووي: «وليس ذلك الوصف لغير المؤمن، فإنه إذا أصابته السراء طغى وعصى، وإذا أصابته الضراء جزع وسخط، والمؤمن يخالفه في الحالين لرسوخ الإيمان في قلبه»[1]

إن هذا الحديث يعالج جذور القلق في النفس والمتمثلة في:

الخوف من المستقبل، الاضطراب عند التقلبات، الحزن عند المصائب، الغرور عند النعم.

ثالثاً: أثر الحديث في بناء الصبر

الصبر في هذا الحديث صبر واعٍ، قائم على رؤية عميقة لمعنى البلاء؛ فالمؤمن من حين يدرك أن الضراء ليست ضياعاً، وأنّ ما يكتبه الله خيرٌ له في حقيقته، يصبح صبره صبر قوة لا صبر انكسار. وقول النبي ﷺ: «فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» يجعل الصبر خياراً واعياً، لأن المؤمن يعلم أن ابتلاءه يبتعد عن العبث والنزوع العشوائي، وأن البلاء الذي يُقابل بالصبر يرفع العبد درجات، ويُكفّر السيئات، ويُزكّي القلب من علله. وبهذا المعنى ينتقل الصبر من كونه حبساً للنفس إلى كونه عبادة قلبية رفيعة، تملأ القلب سكينة، وتمنحه قدرة على مواجهة صدمات الحياة بثبات

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: (ج ٨ ص ١٢٥).

يليق بمن عرف ربه، وفي هذا السياق، يوضح الأئمة الشراح كيف يتحقق هذا الخير من خلال الصبر؛ حيث قال الإمام النووي: «وأما صبره على الضراء فظاهر ومشهور، وثواب الصبر معلوم في الآيات والأحاديث، فإذا صبر نال أجر الصابرين، فكان خيراً له في دينه وعاقبة أمره»(١).

رابعاً: أثر الحديث في بناء اليقين

هذا الحديث من أقوى ما يبني اليقين، لأنه يُظهر للعبد كيف يعمل قدر الله في حياته سرّاً وعلناً؛ فالمؤمن يرى الخير في كل حال، وهذا لا يتأتّى إلا لمن امتلأ يقيناً بأن الله لا يقدّر إلا بحكمة، ولا يدبر إلا بخير، ولا يختار لعبده إلا ما يصلح قلبه. فاليقين هنا حالة ذوقية يعيشها المؤمن كلما مرّت عليه سراء أو ضراء؛ فإذا رأى الخير في كل وجهٍ من أوجه القدر، وجد في قلبه عمقاً يجعل الحياة كلها تجري في اتجاه واحد وهو الإقبال على الله.

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: (ج ٨ ص ١٢٥).

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد؛

فقد انتهت هذه الدراسة المتواضعة ل بحث: «الأحاديث المتعلقة بدعاء الكرب والشدائد وأثرها في بناء الصبر واليقين: نماذج تطبيقية حديثية» إلى استخلاص مجموعة من النتائج والتوصيات المنهجية التي تلخص مضمون ما تم تناوله في المتن، وذلك على النحو الآتي:

أولاً: نتائج الدراسة

· يُمثل الدعاء النبوي في حال النوازل منهجاً عقدياً متكاملاً وتربية نفسية تمنح فؤاد المؤمن الثبات أمام تقلبات الأقدار، متجاوزاً حدود سرد الألفاظ المجردة.

· يتأسس البناء التربوي في أدعية الكرب والشدائد على ترسيخ التوكل أولاً، وجمع القلب على الحياء من الله تبارك وتعالى، والافتقار الصادق إليه، والثقة المطلقة بوعده والتسليم لحكمته.

· تقوم أدعية الكرب في السنة النبوية المطهرة على ثلاث مرتكزات كبرى متلازمة:

١. تعظيم الله وتوحيده: لتهيئة النفس وتطهيرها من الخوف قبل طلب رفع البلاء.

٢. الاستغاثة والافتقار: بإعلان الضعف البشري واليقين بأن القدرة المادية المجردة لا تغني عن العبد شيئاً دون عون الخالق.

٣. تغيير النظرة إلى البلاء: بنقل المكروب من ضيق الفاجعة إلى رحابة القدر، ومن ألم المصيبة العارضة إلى بصيرة المعنى الإيماني المدخر.

· يتلازم في هدي الأدعية المأثورة توحيد الألوهية مع توحيد الربوبية المقيد بالعناية الإلهية الخاصة بتثبيت أولياء الله المؤمنين، والابتهال بأسماء الجلال والكمال (كالعظيم، والحليم، والحي، والقيوم) لاستشعار التدبير واللطف المحيط.

· تُقدم صيغ الاستعاذة النبوية معالجة موضوعية دقيقة لجذور القلق وعوارض الصدمات النفسية (كالهم، والحزن، والعجز، والكسل، والجبن، والبخل، وقهر الرجال)، مما يحمي النفس من التواكل أو الانكفاء على الحيل البشرية القاصرة.

· يُثمر فقه هذه الأحاديث بناء نظام سلوكي متوازن يحكم حياة المرء؛ حيث يقابل السراء بنية

الشكر والضراء بنية الصبر، فتنقلب أحواله كلها طاعات، وتندفع عنه دوامات الحيرة والاضطراب.

ثانياً: التوصيات

· توجيه العناية التربوية والمجتمعية نحو تدبر المضامين العقدية والنفسية للأدعية النبوية المأثورة في الشدائد، والابتعاد عن الاقتصار على مجرد الترديد اللفظي لها.

· حث الباحثين في العلوم الشرعية على مواصلة استخراج الكنوز التوجيهية والسلوكية الكامنة في شروح دواوين السنة المشهورة، وربطها بالواقع الإنساني لتقديم معالجات شرعية مؤصلة تخدم استقرار النفوس وثباتها أمام الأزمات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ثَبَتُ المَصَادِرِ وَالمَرَاجِعِ

١ - صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ). تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر. الطبعة الأولى، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ.

٢ - صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١هـ). تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٥هـ.

٣ - سنن أبي داود، أبو داود السجستاني، سليمان بن الأشعث (ت ٢٧٥هـ). تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. دار الفكر، بيروت، بلا تاريخ.

٤ - جامع الترمذي (سنن الترمذي)، محمد بن عيسى الترمذي (ت ٢٧٩هـ). تحقيق: بشار عواد معروف. الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م.

٥ - سنن النسائي - الكبرى، أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣هـ). تحقيق: عبد الغفار البنداري وسيد كسروي حسن. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ.

٦ - سنن النسائي - المجتبى، أحمد بن شعيب النسائي. تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة. الطبعة السادسة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٤٠٦هـ.

٧ - سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٣هـ - -). تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار الفكر، بيروت، بلا تاريخ.

٨ - مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ). تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون. الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢١هـ.

٩ - مسند أبي يعلى، أحمد بن علي الموصلي (ت ٣٠٧هـ). تحقيق: حسين سليم أسد. الطبعة الأولى، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٩٨٤م.

١٠ - مسند الطيالسي، سليمان بن داود الطيالسي (ت ٢٠٤هـ). تحقيق: محمد بن عبد المحسن التركي. الطبعة الأولى، دار هجر، القاهرة، ١٤١٩هـ.

١١ - مسند البزار، أحمد بن عمرو البزار (ت ٢٩٢هـ). تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله. مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ١٤٠٩هـ.

١٢ - مصنف ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن أبي شيبة (ت ٢٣٥هـ). تحقيق: كمال

يوسف الحوت. الطبعة الأولى، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩هـ.

١٣ - مصنف عبد الرزاق، عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت ٢١١هـ). تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي. المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٣هـ.

١٤ - صحيح ابن حبان، محمد بن حبان البستي (ت ٣٥٤هـ). تحقيق: شعيب الأرناؤوط. الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٤هـ.

١٥ - المعجم الكبير، سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠هـ). تحقيق: حمدي عبد المجيد. مكتبة القاهرة.

١٦ - المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد الطبراني. تحقيق: طارق عوض الله وعبد المحسن التركي. الطبعة الأولى، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ.

١٧ - المعجم الصغير، سليمان بن أحمد الطبراني. تحقيق: محمد شكور محمود الحاجي. الطبعة الأولى، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٥هـ.

١٨ - المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥هـ). تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت, ١٤١١هـ.

١٩ - سنن البيهقي الكبرى، أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ). تحقيق: محمد عبد القادر عطا. الطبعة الثالثة، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م.

٢٠ - الأحاديث المختارة، محمد بن عبد الواحد الضياء المقدسي (ت ٦٤٣هـ). تحقيق: عبد الملك بن دهيش. الطبعة الأولى، دار العاصمة، الرياض، ١٤١٨هـ.

٢١ - المنتقى، محمد بن علي ابن الجارود (ت ٣٠٧هـ). تحقيق: عبد الله بن يوسف الجديع. دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤٠٨هـ.

٢٢ - شرح مشكل الآثار، أبو جعفر أحمد بن محمد الطحاوي (ت ٣٢١هـ). تحقيق: شعيب الأرناؤوط. الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٥هـ.

٢٣ - عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم آبادي (ت ١٣٢٩هـ). دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ.

٢٤ - الفتوحات الربانية على الأذكار النووية، أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ).

٢٥ - تخريج زاد المعاد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين. مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٢هـ.

٢٦ - الفوائد، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ). دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٧ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ). دار الكتاب العربي، بيروت.
٢٨ - المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ). دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٩ - شرح حديث شداد بن أوس (يا غلام إني أعلمك كلمات)، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (ت ٧٩٥هـ). دار البشائر الإسلامية، بيروت.